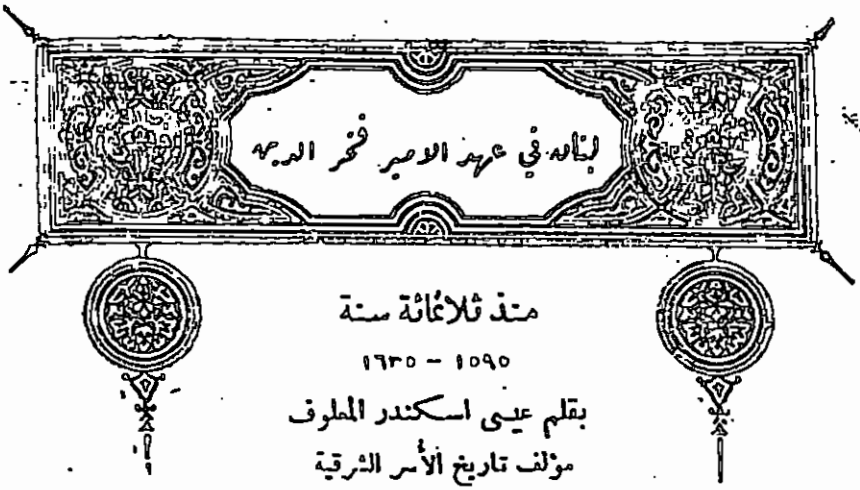

منذ ثلاثمائة سنة

١٥٩٥ - ١٦٣٥

بقلم عيسى اسكندر المعلوف

مؤلف تاريخ الأسر الشرقية

٣

(تتمة)

من فوائد اعمال فخر الدين

ذكر شيخ المؤرخين الوطنيين البطريرك اسطفان الدويهي في كتابه « تاريخ الازمنة المخطوط » :

« انه بزمن الامير فخر الدين قويت النصارى وركبوا الخيول بسروج ولبسوا عمائم بيضاء وكروكاً ولبسوا مناطق وسيوفاً مرصعة وحملوا السلاح المرصع. وقدم المرسلون من بلاد الافرنج وسكنوا لبنان »[1] اه.

ومما يرويه الشيوخ عنه ان امرأة حلبية حكم حاكم حلب على ابنها الوحيد بالاعدام ، فضاقت الدنيا بوجهها ، وقصدت فخر الدين لما كانت تسمعه عن هيبته ومكانته ، فطلبت منه رسالة الى ذلك الحاكم ليعفو عن وحيدها . فرثى لحالها وكتب رسالة الى حاكم حلب يستعطفه عليها باطلاق سراح ولدها . فحملت الرسالة وعادت الى بلادها ولكنها ابطأت بالجواب على المعنى الذي امرها ان تخبره بما يكون من تأثير رسالته . فسار بشرذمة من عساكره الى حلب ليستطلع طلع الامر فالتقى بالمرأة عائدة مع ولدها الذي استبقاه الحاكم حياً ، قادمة اليه لتشكره ، وذلك عند بحيرة قدس المعروفة ببحيرة قطينة

---

١) تاريخ الدويهي ، الذي طبعه رشيد الشرتوني ، ص ٥٠٢

قرب حمص. فسرّ بخلاص ابنها وردّ لها هداياها التي كانت تحملها اليه. — فهذه القصة، وان كانت غريبة في بابها، فهي ليست ببعيدة الوقوع لمن كان يتقد غيرة على مصالح بلاده ويتفانى في خدمة رعاياه.

وكانت ابنة الامير فخر الدين زوجةً للامير حسن بن يوسف باشا سيفا[1]. فلما استفحل العداء بين والدها وآل زوجها، ولاسيما بعد ان رفض والدها هديتهم على اثر عودته من اوربة، سمعت مرةً السيفيين اقارب زوجها يعيّرونها بقصر والدها. فطوراً يقولون: لو وقعت البيضة من جيبه الى الارض لما انكسرت. وتارةً: انهم يستطيعون ان يضعوه في جيوبهم بين مفاتيحهم. ونحو ذلك.

وفي احد اعراسهم قالت امرأة منهم هذه الاغنية من النوع المعروف بالزلاغيط (الزغاريد):

جونا الطوال يا نصلة الكيني يا سلسلة مدهّبة يا سيف علي الدين
جونا القصار لا شور ولا تدبيري مثل الضفادع يقموا بقراني البير

فقالت لهم ابنته:

عيّروني بقصرك قلت عود النبر والقصر خمر الغزال والعنق شامخ شبر
قولوا لامل الذكا قولوا لامل الخبر ألقلم يجمع الدنيا ولو كان طوله قدر

فبلغ ذلك المعني فارسل اليهم قوله هذا:

نحنا زغار وفي عين العدو كبار انتو خشب حور نحنا للخشب منشار
وحق طيبه وزمزم والنبي المختار ما بسّر الدير الا من حجر عكار

وقد ترجم هذين البيتين المؤرخ كشرشل بك الانكليزي في تاريخه الى اللغة الانكليزية.

وعلى اثر ذلك نشبت حرب بين المعني وآل سيفا في عكار والحصن سنة ١٦١٨. فدخل يوسف باشا سيفا قلعة الحصن برجاله وحوصر بها مدة. فهدم المعني دوره في طرابلس وعكار ونقل بعض حجارتها الصفراء الى دير القمر،

---

١) سعى الامير المعني، باشارة بعض اصحابه، بمصاهرة آل سيفا، فاعطى ابنته زوجة لحسن هذا، وتزوج الامير فخر الدين اولاً بابنة يوسف باشا سيفا ثم بابنة عمها الامير علي سيفا. فكانت هذه المصاهرة زائدة في العداوة بينها بدلاً من المسالمة.

ولا تزال ظاهرة في ابنية المصنيين فيها كالخرج وغيره ، فبرّ بقسمه.

ومع كل تلك المداوة ، لما علم المعني بضايقة السيفي ورجاله لشدة الحصار عليهم ونمي اليه انهم سيموتون جوعاً لفراغ المؤن وانقطاع المدد عنهم ، ارسل اليهم من فوره كل ما كان تحت يده من الميرة والطعام فانقذهم . وسنة ١٦٢٦ حدث غلاء شديد بيع فيه شنبل القمح في طرابلس الشام بثلاثة عشر غرشاً وربع ، وذلك لكثرة ما شحن من الحنطة الى اوربة . وكان المعني في حوران فبلغه الخبر ، فسخر الجمال ونقل عليها ثلاثة آلاف حمل حنطة الى دمشق وفرقها ، وامر ان يكون رطل الخبز بقطعتين اي بارتين فرفع الضيق عن سكان البلاد.

وكانت هداياه للحكام المنسوجات الفاخرة والخيول المطهمة والاسلحة المجوهرة والمرصعة والصابون النفيس والدراهم الوافرة ، وقد سالم العرب واتخذهم اعوانه . واتسعت تجارته في الحرير والصابون والمنسوجات فكان يحتكرها ويربح منها اموالاً طائلة . وسهل للتجار التوسكانيين والذين والوهم المرور في ثغور لبنان ومدنه الداخلية مما هو تحت حكمه فربح اموالاً كثيرة . وكان يستقرض الدراهم من التجار ويردها لهم من اثمان الحرير وغيره من ثمرات اعماله العمرانية.

وكثيراً ما كان يقول قبل سفره الى اوربة وبعده : « ان السلطنة تقلق تخم فكلما تملكنا بلاداً نتقوى برجالها واموالها وننتقل الى غيرها. »

ولقد قال عند سفره الى توسكانة مخاطباً عسكره وعياله : « انني اذا قدّر الله عليّ ووقعت في ايدي رجال الدولة . وقال لكم كبيرهم سلموا لنا القلاع حتى نطلق لكم اميركم فلا تعتمدوا قوله واحفظوا قلاعكم وشرفكم ونامو سكم . ودعوهم يفعلون ما يريدون بعد ان تقيموا شرفكم . » وهذا يدل على بسالته ووطنيته وابائه.

ومن اعماله الخطيرة انه لما تولى محافظة ايالة طرابلس الشام سنة ١٦٢٧ ، انشأ قناة القاع وعمّر القليعات في جون عكار ونصب في سباخها (مفراقها) بعد تجفيفه اربعة عشر الف شجرة توت . وغرس بستاناً اكبر من هذا في محل آخر . وجفف ارض عتيق في البقاع ومستنقعات اخرى.

وكان قد ادخل بطريرك المولونة الى جنوبي لبنان في مجدل المعوش سنة ١٦٠٩ ، وهو يوحنا مخلوف الاهدني ، لما اشتراها هذا الامير من سكانها المتخاصمين باثني عشر الف غرش ، فبنى البطريرك فيها داراً له وكنيسة واخذ ابناء طائفته يتقاطرون الى تلك الجهات . ورفع الضرائب عن سكان الشوف ، فحفل بالسكان ولاسيما النصارى . وفضّ الخلاف بين بطريركي الروم الملكيين سنة ١٦٢٦ ، وهما اغناطيوس عطية ، كاتب يده قبلاً ، وكيرلس ابن الدباس ، صديق آل سيفا ، وعقد لهما مجمعاً في راس بعلبك . فثبّت عطية واسقط ابن الدباس ، فازال اضطراب الطائفة .

وساعد الآباء المرسلين في تشييد ديراتهم وكنائسهم ، ولاسيما الكبوشيون والفرنسيسكان ، كما ساعد الوطنيين من كل المذاهب . واتخذ مدبويه وكتابه واعوانه من المسيحيين كالشايخ الخوازنة والحبيشيين والحاج كيوان نعمه من دير القمر وغيرهم . ووفق بين الاحزاب فاتفقت كلمتها على خدمة مصالح البلاد . وكثر المهاجرون الى بلادنا ومنها للتجارة . فكان تساهله هذا مستجلباً له محبة الجميع .

وكانت بينه وبين امراء توسكانة وغيرها مراسلات كثيرة تجارية وسياسية . وقد استنسخت كثيراً منها وفصّلتُ كل هذا في مجلتي « الآثار » قبل الحرب وبعدها بكل تبسط مع نشر رسم الامير وزوجته واحد فرسانه ومخيّم عساكره في بيروت في ميناء الحصن . وارصدت الباقي لنشره في التاريخ المطوّل الذي اشرت اليه آنفاً .

صفاته واخلاقه ومنزلته

مرّ في تضاعيف كلامنا اشياء كثيرة عنه . ولكن الشيخ احمد الخالدي الصفدي الذي ارّخه بكتاب فصل فيه شؤونه في البلاد وفي اوربة ، وبعدها قال يصف الامير فخر الدين وولده الامير علياً بما نقله من مخطوطتي :

« ان كلاًّ منهما ربع القامة ، حنطي اللون ، لطيف الهامة ، مهاب جليل ، ذو عطاء جزيل ، يباشر تدبير مملكته بنفسه ، ويضبط اموالها ويتقن امورها

بقوة حدسه . قوي العزم ، شديد الحزم ، حسن التدبير ، كما يعطف على الغني يحنو على الفقير . مطيع لله وللسلطان ، يؤدي ما عليه من الاموال في كل آن . غير انه لا يسلم من حسود . فان كل ذي نعمة محسود . فما احقه بقول القائل الودود :

حسدوا الفتى اذ لم ينالوا سعيه فالكل اعداء له وخصومُ
كضرائر الحسناء قلن لوجهها حسدًا وبغضاً انه لظليمُ» (اه)

والقافية الاصلية في آخر بيت هي « انه لدميمُ » وبما ان المعني كان دميم المنظر وقد عيّره بدمامته اعداؤه آل سيفا ، غيّر الكاتب الكلمة بقوله « انه لظليمُ » تأدباً منه مع مخدومه .

ووصفه وستنفيلد الالماني بقوله :

« انه كان متوسط القامة ، احمر الوجه ، برّاق العينين ، مبتسم الثغر . »

والمشهور عنه انه كان قصير القامة ، دميم المنظر ، افطس الانف ، تقدح عيناه شررًا لشدة ذكائه ، حلو الصداقة ، مرّ العداوة ، شديد الصبر . فانه في اواخر ايامه كان قد فقد ولده الامير علياً قتيلًا سنة ١٦٣٤ . وفقد والدته السيدة نسب التنوخية ، وكان الاول عوناً له في الحروب ، والثانية مساعدة له بسداد الرأي والدخول على الحكام . واوجس خيفةً على ولده الامير حسين الذي اختبأ مع مدبره الشيخ ابي نوفل الخازن في قلعة المرقب ، قرب اللاذقية ، من وجه جعفر باشا ، امير الاسطول العثماني الذي ارسلته الدولة لتدويخ المعني والاقتصاص منه . فأسر حسين وارسل الى حلب وانقطعت الاخبار عنه . وفوق كل هذا حبطت آماله من النجدة التي كان يتوقع ارسالها اليه من الفرندوق ، فكتب اليه معتذرًا عن القيام بوعده لاسباب اضطرارية . ورأى من مريديه ومخالفيه اعراضاً عن مساعدته وتهاملًا وتماهلًا في ارسال المدد . فتجالد مع كل هذه الكوارث واظهر من الضعف قوة ، ونقل من قلعة نيحا الحصينة المعروفة بشقيف تيرون الى قلعة جزين في وسط شالوفها (شلالها) المتدفق بمياهه من الاعالي ظانًا انه هناك في مأمن لا تصل اليه يد الحكومة . ولكن احمد باشا الكجك (الصغير) ، الذي رباه المعني واحسن اليه ، اهتدى الى مكمنه وقبض

عليه مع اولاده الثلاثة وعياله ورجاله وسلمهم لجعفر باشا المذكور آنفاً .

وكان المعني قبل هذا قد ادرك قرب الخطر المحدق به فارتأى ان يودع ولده الامير منصوراً مع خزينته المحتوية على مليون ذهب عند سادات دي سيرن وفرسان مالطة في خيفا فيرسلونه في احدى سفنهم الى اوربة . ولكن احد المقربين من المعني اقنعه بان يتوقع معاضدة التوسكانيين التي وعدوه بها . فكان ما كان مما اوقع الفشل في اعماله وحبوط آماله .

اما مكانة الامير فخر الدين فكانت رفيعة العماد ، وهو عزيز القدر عند قداسة البابا وملوك اوربة وامرائها مثل لويس الثالث عشر ملك فرنسة وفيليب الثالث ملك اسبانية ، وقزما الثاني غرندوق توسكانة ، ومن جاء بعدهم من معاصريه . فزاره كثير من علماء الافرنج وقناصلهم ورحالتهم . وكان لديه قنصل لتوسكانة لمفاوضته بالشؤون السياسية والتجارية . وكانت هداياه الثمينة متوالية الى كبار الفرنج . وكان البطاركة والاساقفة والكهنة الوطنيون والمرسلون الاجانب اصحابه .

وسنة ١٦٣٠ التجأ اليه جان بولاد بن سعيد وولده رباح ، جدّا آل جنبلاط الحاليين ، فانزلهما في مزرعة الشوف واحسن وفادتهما لما كان بينه وبين اسلافهما من الصداقة والمحالفة . وكذلك استقبل القناصل والتجار والاوربيين الذين تديروا البلاد . ورحل كثير من بلادنا الى بلدانهم للعلاقات التجارية ولبعض الصناعات الرائجة . واعاد مرسلي الافرنج الى فلسطين بعد ان كانوا قد تركوها منذ عهد بعيد وسهل لهم بناء الديارات والكنائس . وكان في باب المعني كثير من الكتّاب والشعراء الذين ملأوا الكتب بمدحه ومدح ولده الامير علي .

وفوق كل هذه العلاقات الوثيقة بيننا وبين الافرنج ، املى على مؤرخه الشيخ احمد الخالدي الصفدي كل ما رآهُ هناك بلغة عامية ، فدوّنه في تاريخه المخطوط المذكور قبلاً ، مشيراً الى دقّ البارود لحشو البنادق ، والى البنك وايداع الدراهم فيه واخذ فائدة للمال المودع . وذكر المطبعة واصفاً من اقدم المطبوعات العربية فيها قانون ابن سينا شيخ الاطباء وانه كان يباع لعهده بثمانية قروش . وافاض في طرق تجنيد العساكر وتعبئتها وآلات الحرب . وقال عن

اميركة : « الهند الجديدة التي فتحها سلطان اسبانية وان السفر اليها باثني عشر قليون (مركب) تذهب ومثلها ترجع بمدة ستة اشهر لجلب فضة الريال والبهار » مما نقلته الى مجلتي الآثار بجواش وتعاليق ، فراجع مجلداتها الثلاثة قبل الحرب العامة ثم ما عربته في مجلديها بعد الحرب . الى كثير من امثال هذه المميزات التي اشتهر بها ، واخصها اصلاح مرافئ لبنان ومنع القرصان عن الاعتداء على التجار وتأمين طرق البر لترويج التجارة .

اما ما تركه ذلك العهد من علاقات الاوربيين ، ولاسيما التوسكانيين والبنادقة ، اللغوية في بلادنا فكثير من اسماء الأسر التي تديرت البلاد وبقيت فيها الى يومنا مثل تاسو ، وابيلا ، وكتاڤاكو ، وبمبينو ، وبريمو ، وبطاطو ، وبدارو الخ .

ومن اسماء الحاجيات مثل الدكتور ، والروشتة ، والسبيتالية ، والملارية ، في الطب والعلاج . والكومبانية ، والكمبيالة ، والبوليسة ، والكريدتو ، والكونتراتو ، والبروتستو ، والبنك ، والمانيفستو ، والكمبيو ، والبالة ، والتوصرو ، في التجارة . واغرب من كل هذا ان الدلالين لا يزالون ينادون في بيع المزايدة (الحراج) بقولهم أونا . دُوَا . تُرِي . وهي من اسماء العدد الطليانية . والجوكتا ، والكبوت ، والبنطلون ، والصاية ، والبردايه ، والبالطو ، والفلانلا ، والكراڤت ، والجونتي ، والتنورة ، والقلشين ، والكلسات ، والكربينة ، من الملابس . وتابلو ، وكُرنيته ، وفرتيكة ، وبستون ، وفرشاية ، وكبّاية ، وبندير ، وطاولة ، من الادوات . وروستو ، ومعكرونة ، ورشتا ، وكستلاته ، وبطاطه ، وبزلاّ ، وبنادوره[1] ، من المآكل . وكرُوسة ، وطنجرو ، وكاڤو ، من عربات النقل . وبريمو ، وسيكونتو ، وترسو ، من المراتب . وكازينو ، وبيدا ، من المشاريب واماكنها . والكبّا والدينساري ، والسباتي ، والبستوني ، والريّا ، والأص ، من لعاب الورق وتسمياته . واڤوكاتو ، وكوردون ، وبوسطة ، وبراڤو ، ودويلو ، وسيكاره ، وانتيكه ، وكرنتينا ،

١) اصل لفظها (بومي ذورو) اي التفاح الذهبي ، واستعملته العامة اولاً « بادوره » ثم بنادوره .

وفنتريا ، وسكولا (مدرسة) ، وفتيشه ، وصقالة واسكلة ، وبابور ، وبونت (تحريف بوند بمعنى الاسكلة) وبونو ، ومداما ، وباتنته (رخصة المركب) وبوما، وسنيوره ، من الاصطلاحات المختلفة .

وبعض الكلمات حرفت مثل أونطه بمعنى اخذ انشي. بالحيلة فهي من كلمة Adonta الايطالية ، والوردديان من كلمة Guardiana بمعنى خفير . وليكو من Liccola بمعنى ما هو . وهي من استعمال عامتنا .

واخذ الايطاليون عنا الفاظاً الى لغتهم رأيت فيها كتاباً اتذكر مما فيه الآن بستاشيو (فستق) مركاريتا (مرجان) ، جيرافه (زرافة) ، طابيأتو (طنفسة) ، بروكا (ابريق) ، كلاباً (قنب) ، كنفورا (كافور) ، كاراوانا (كروان - قافلة) ، دمسكو (نسيج دمشقي) ، موصلينا (نسيج موصلي). وشيلوكو (الريح الشرقية) التي نسميها نحن (الشلوق) بلفظها الايطالي وهي تحريف (الشروق).

واهم ما كان من ذلك الاتصال مبادلة البضائع ووضع الدراهم في البنوك الاقتصادية التي كانت في عهده تفتح وتشتغل باذن الحكومة ومشارفتها ، ورأس مالها هو مال الخزينة الملوكية او العمومية ، ومدير البنك عندهم هو اشبه بوزير المالية عندنا الان . وكان امراء آل مديسيس اغنى اهل زمانهم واول من اسس البنوك في الشرق لاعتنائهم بالملاحة والتجارة والمعاملات المالية[1].

---

١) كانت توسكانة امارة مستقلة في ذلك العهد وحاكمها يسمى الفرندوق (الدوق العظيم) وحاضرتها فورنسة ، ارتقت فيها الفنون حتى سميت « انينة ايطالية » ومن مدنها بيزا الشهورة ، والعرب سموها (بيش) وسكانها (البيزان) وصفهم ياقوت الرومي في معجم البلدان قال : « ورأيتهم بالشام تجاراً ذوي ثروة » مما يدل على العلاقات التجارية القديمة معنا . والبندقية مشهورة وقناصلها وتجارها في بلادنا قدماء ، ولدى معاهدة تجارية بين سكانها وصلاح الدين الايوبي — ولقد اتحدت هذه الامارات المستقلة وصارت تحت حكم ايطالية سنة ١٨٦٩ م .

نموذج من رسائل المعني

للمعني رسائل كثيرة في توسكانة وليفورنو وفلورنسة وغيرها بخطه وخط الحاج كيوان وكتّابه مدوّنة بسجلات وربائد (ارشيف) ، وهي مفاوضات بينه وبين امراء تلك البلاد تجارية وسياسية استنسخت بعضها بواسطة من زارها هناك وعرفها ، وضممتها الى تاريخ المعني المطوّل ، فاقتصر منها الان على رسالتين :

الاولى - ان فخر الدين كان عند عرب آل جبار من سلالة جعفر المكي الشهير وزير هارون الرشيد فكتب يخبر عن قتل احدهم الاخر بكل ايجاز فجاءت الفاظه تاريخاً لتلك السنة اذ قال :

« مدلج قتل شديد ولد احمد ».

فجمّل هذه الكلمات نرى مجموعه ١٠١٨ وهو السنة التي صار فيها القتل بالهجرية يقابلها بالمسيحية سنة ١٦٠٩.

والثانية — رسالة تجارية من الامير فخر الدين بخطه في مكتبة الاوفيشي في فلورنسة بالسجل ٤٢٧٦ والصفحة ٣٠٨ من مجموع رسائله في ذلك السجل، في الدار التي نزل فيها عند سفره الى اوربة ، وهي الان مدرسة رهبانية . قال يخاطب الفرندوق فرديناندو الاول بما نصه بالحرف الواحد :

الى حضرة السنيور الفرندوكا والسنيوره مداما حفظهم الله تعالى

ان سألتم عنا وعن اولادنا الجميع بخير من الله وداعين لكم ان الله يعطيكم مرادكم . والقسيس ابرهيم المورانيّ[1] وصل لعندنا وهو داعي شاكر من احسانكم . الله تعالى يجعلكم دايمين . وتذكرة البنك بالدراهم حق[2] الحرير وصلت الينا والمبلغ الذي باقي على يدكم حق اليسره[3] ما وصل الينا

١) هو ابرهيم الحافلاني ترجمان ملك فرنسة وباباوات رومية، وسفير المعني، المؤلف المشهور توفي في رومية سنة ١٦٦٤ راجع المشرق (٢٨ [١٩٣٠] ٠٠٠١٨٦)

٢) حق بمعنى « ثمن » عند العامة .

٣) اليسره واليسرا واليسرى ، كما كتب في الرسائل ، هي خرز اسود يتخذ للسبحات (المسابح) كان الامير يرسلها مجلوبة من بلاد العرب للتجارة مع غيرها من الحاصلات الوطنية والمستجلبة .

فيكون نضركم على القس ابرهيم في خلاص المبلغ ويشتري لنا به جوخ وقماش على يد احد من قبلكم ويجيبوا معه . واما المبلغ الذي في البنك وصل لنا تمسكه[1] . يضل باقي لنا في البنك هو وفائدته في كل سنة الى زمان نتازه نحن واولادنا يصال اليهم بفائدته على قدر السنين الذي بيقعد في البنك . وفي كل سنة تحسبوا فايدة الدراهم تكتبوها عندكم وتحطوها في البنك بالفايدة ولا يضيع لنا شي لان خاطرنا طيب بالله ربكم ولا تعوقوا القسيس ابرهيم يعاود لعندنا بالجوخ والقماش على قدر الدراهم الذي اعطاها من دراهمنا ثمن اليسرا والدراهم الذي اعطيتوها الى البربير[2] والى معلم الجسر[3] والى الخباز[4] سلمناها الى قنصلكم على يدهم وكتلنا لهم على الزمان القعدوه عندنا مثلما كتبتوا لنا . ما بقا لهم عندنا شي ابداً . واما معلم الجسر بعد باقي عندنا . ومتى ما تخلص شغله نكتل له اجرته ونوجهه الى بلاده . وخاطره فرحان . ونحن واولادنا واعيالنا داعين لكم دايماً بالخير . ومرادنا ان نكون نحنا واولادنا دايمين في خاطركم على المحبة والصداقة الذي هي مامولنا ومرادنا دايماً على طول الدوام والزمان .

تحريراً في شهر ربيع الثاني سنة الف اثنين واربعين[5] محمدية .

(محل الختم)[6] خادمكم[7]

فخر الدين معن

---

١) كانت العامة تستعمل «التمسك» لما هو في عرفنا «الوصل» . وهو التصريح بوصول شيء يتمسك به آخذه .

٢) لفظة ايطالية بمعنى الحلاق . ولكن المراد منها هنا الطبيب ، لأن الحلاقين عندنا كانوا يجسون ويفصدون ويرسلون العلق ويصنون الادوية .

٣) المراد به المهندس ، وكان من اهم اعماله عندنا بناء الجسور لكثرة الانهار .

٤) يريد به صانع البقسماط للعساكر . وكان المعني قد جلب هؤلاء العمال معه ، ويطلبهم حين الحاجة ويبيدهم عند فراغهم مما يتدبر اليه وذلك للتحصين وتجفيف المستنقعات ، ومداواة الجرحى في الحرب وعمل المؤن العسكرية .

٥) توافق سنة ١٦٣٢ م

٦) كتب على ختمه «مفخر آل معن فخر الدين سنة ١٠١١» يوافقها من سني المسيح ١٦٠٢

٧) ويكتب احياناً (سرفيتور) بالايطالية بمعناها . وكان الفرندوق يوقع افخر الدين اسمه تحت كلمة (خادمكم) ايضاً .

خلاصة الكلام

هذه لمحة مختصرة من تاريخ الامير الشهير فخر الدين المعني الذي نقل مدنية التوسكانيين الى بلاده، وعزز شؤونها الاجتماعية والعمرانية واستصرخ امراء توسكانة ليساعدوه على تحريرها، فاعدّ له الفرندوق ستة الاف رجل من جيوشه المدربة ليرسلها اليه. فنشبت الحرب الثلاثينية بين فرنسة واسبانية (١٦١٨ ــ ١٦٤٨) فنمته عن انجاز وعده. ثم خذله انصاره وكثرت نكباته، فتحصن في قلاعه المنيعة مدة الى ان عيل صبره ونفدت قواه وذخائره. فقبض عليه احمد باشا الكجك (الصغير) وقتل في الاستانة في ٣ نيسان سنة ١٦٣٥ هو واولاده الثلاثة: منصور، وحيدر، وبلك. اما بكره الامير علي فقتل قبل ذلك. وبقي اصغرهم الامير حسين الذي مرّت ترجمته. فحري بنا بعد ثلاث سنوات اقامة حفلة لمرور ثلاثمائة سنة عليه.

ولما ضرب الاسطول الايطالي بيروت سنة ١٩١٢ م تذكرت انه قبل ثلاثمائة سنة، اي سنة ١٦١٢ م، ذهب المعني هذا مستصرخاً التوسكانيين لمحاربة الدولة. والان جاءت ايطالية بنفسها لتزالها، فنشرت في مجلتي «الآثار» تاريخ المعني ورسمه معتمداً على اهم المصادر الاجنبية والعربية من مطبوعة ومخطوطة فملأ ذلك التاريخ ثلاث سنوات من المجلة قبل الحرب الكبرى. وعدت الى ذكر شيء ما فاتني في المجلة التي نشرتها بعد الحرب العامة في مجلدين، بعد ان استقريت كل ما يمكن الوصول اليه فجمعت كل ذلك باشارة اصحابي في كتاب اعددته للطبع بصور نادرة، وهو كبير الحجم لخصتُ منه هذه المقالة، واليك ما اعتمدت عليه في مباحثي:

من التواريخ العربية المخطوطة: تاريخ الشيخ احمد الخالدي الصفدي، وذيل الكواكب السائرة للغزي، وابن سباط العاليمي، والبوريني، وغيرها مع وثائق ورسائل وتعاليق جمة. ومن المطبوعة: تواريخ القرماني، والدويهي، والمحبي، والمرادي، والشدياق، والامير حيدر الشهابي، وما نشرته المجلات كالمقتطف وغيره.

ومن التواريخ الافرنجية : تاريخ الابوين جواني ماريتي واوجين روجه ، وكاتافاگو ، من الايطاليين . ودي لاروك ، وڤولني ، ولامرتين ، ونومان ، وبيجه دي سان پيار ، وتقارير المسيو دي سيزي ، سفير فرنسة في الاستانة ، ومجموعة جان بودن ، والفونس دالنصو ، والشفالیه ارڤيو ، وهيلر الكبوشي ، وهمر ، من الفرنسيين ووستنفيلد ، وبروتوس ، من الالمانيين . وجرج سندس ، وريشار نولس ، وهنري موندرل ، وتشرشل بك ، من الانكليزيين . وباسيلي ، من الروسيين . وتاريخ مصطفى نعيما ، وقاموس الاعلام لسامي بك ، من العثمانيين . والمعالم (دوائر المعارف) من المطبوعات والمخطوطات وما في سجلات الرهبان المرسلين ، وخزائن اوربة وغيرها .

***

هـذا هو الامير فخر الدين المعني الذي شغل الدولة العثمانية مدة طويلة يناصب رجالها ويسعى جهده لاستقلال البلاد وعمرانها ، والتبسط في الحضارة . فخذله ابناء وطنه ، وخدعوه بمواعيدهم المرقوبة ، وتجافوا عنه في ضيقته . ومن النكات التاريخية عنه : ان جده مضى هرب من الافرنج ملتجئاً الى حكام البلاد ، وهو هرب من العثمانيين ملتجئاً الى الافرنج . ومنذ ثلاثمائة سنة استنجد الامارات تحت حكم ايطالية الآن لمحاربة العثمانيين ، وبعد القرون الثلاثة حاربت ايطالية الدولة التركية . وجده فخر الدين قابل السلطان سليماً فاتح سورية ومصر ، اذ دخل دمشق في اوائل تشرين الاول سنة ١٥١٦ ، وكان جلاء الاتراك عن دمشق بعد الحرب الكبرى في ذلك الشهر بعد نحو اربعة قرون . رحمه الله عداد حسناته وما تركه لنا من المآثر الخالدة في بطون التواريخ مسجلة جهاده السياسي والعمراني .